الفصل العاشر

٥٠ - الصليبيون

توالى عَلَى العرب فى فلسطين لنزع السيادة منهم هجمات كثيرة أعظمها الحملات الصليبية الأوروبية التى كان الباعث لها أسبابًا خطيرة لا يسعنا تفصيلها فى هذا الموجز بل نكتفى بسردها مختصرة فنقول: ظهرت هذه الحرب لعامة شعوب أوروبا بمظهر دينى فقط فأشاعوا أن السلجوقيين أهانوا حجاج المسيحيين واعتدوا عليهم غير أن التواريخ العربية لم ترو هذا الخبر قطعًا بل ذكرت أن المسيحيين كانوا ينعمون فى حريتهم مثل المسلمين وما كان يقترفه بعض الملوك مثل الحاكم الفاطمى من الظلم والجور كان يشمل المسلمين والمسيحيين عَلَى السواء ولكن هذه الحروب كانت منطوية عَلَى أمور سياسية كما ورد فى خطاب البابا أوربانوس الذى حرض بهِ الممالك التجارية عَلَى اغتنام هذه الفرصة ويقال: إن روم القسطنطينية خافوا سلجوقى الأناضول فاستغاث إمبراطورهم بالبابا ووعده أن يضم كنيسته إلى كنيسة روما ويقال: إن الحكومات التجارية حرصت على أسواق الشرق لما اضطربت العلائق بين آسيا وأوروبا فهبت تدافع عن مصالحها. وقيل أن أيدى أمراء المقاطعات فى أوروبا لاسيما فى انكلترا كفت وألغيت امتيازاتهم فأخذوا يبحثون لهم عن بلاد أخرى يستعيضون بها عن مقاطعاتهم. ومما هو جدير بالذكر أن أوروبا كانت حينئذ مسوقة بتيار دينى وهوَس مسيحى وكان ذلك الوقت زمن الفروسية والنجدة فنذر كل فارس أن ينقذ الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ويغيث الضعيف والمظلوم. وهذا الشعور الدينى كان عاملاً عظيمًا فى الحروب الصليبية لأنهُ عز عَلَى أبناء المسيح فى أوروبا أن يروا أقدس بقعة لديهم فى يد عدوهم. فلما زار القدس بطرس الناسك الأفرنسى فى أواخر القرن الحادى عشر وشهد خشونة التجبر وذاق مرارة التحكم التهبت فى صدره نار الحمية وقابل

بطريرك القدس فحدثه بهذه الشدة والقساوة ووعده أن يستبدل هذا الذل بالعز وصمم على إثارة نفوس زعماء أوروبا إذا هو لم يمت فلما رجع أعلن ما رآه وحدث البابا بما عاين ولمس فعقد الاجتماعات وأرسل المناشير وخطب ووعظ وأقنع الأمم الأوروبية وهاجمهم وحرضهم على فتح فلسطين والاستيلاء عَلَى الأماكن المقدسة ولكنا نضرب صفحًا عما يتعلق منها بأوروبا ونحصر بحثنا بما جرى فى فلسطين لأن هذا المختصر لا يتحمل التطويل فنقول كانت فلسطين قبل قدوم الأفرنج محطة للنوائب لأنها توالت عليها الزلازل وفتكت بها الحروب والفتن وأهزلتها المجاعات بل كانت شبه كرة يتلقفها فريق ويتخطفها آخر فيوماً تكون تحت النفوذ العباسى ويوماً فى يد الفاطمى يتنازع عليها القواد ويغتصبها الأمراء ويقتسمها العمال وليس للخلفاء إلا الخطبة والسكة والطراز وأصحاب الأقاليم والبلاد هم السلاطين والملوك يحكمون ويجبون الأموال ويعلنون الحروب ويؤيدون الخليفة ويتمسكون بهِ ليهبهم الألقاب ويخطب لهم عَلَى المنابر.

فزحفت جموع أوروبا إلى سورية باذلة أرواحها ومهج بنيها وحملوا على الشرق تسع حملات تخللها كثير من النجدات بعضها هوى فى الطريق والبعض الآخر وصل فلسطين.

الحملة الأولى: سنة ١٠٩٦ م أو سنة ٤٩٠ هـ

كانت الحملات الصليبية خليطًا من الفرسان "Knights" والجنود المنتظمة والمتطوعة تسير جماعات بمواشيها كالقبائل الرحالة فلا قائد يتعهدهم ولا أمير يدبر شؤونهم كأنهم قطيع من البشر ساقهم التعصب الدينى إلى الموت.

اجتمع فى فرنسا سنة ١٠٩٥ م جمهور مختلط يبلغ عددهم مائتى ألف نفس بلا رابطة تجمعهم ولا ألفة تمسكهم إلا عاطفة رسم الصليب «+» المنقوش على سلاحهم وصدورهم. فساروا إلى ألمانيا فالنمسا فهنغاريا فالأستانة وهنالك أحصى عددهم فإذا هم النصف والباقى تخطفهُ أهل البلاد فقتلوهم ومنهم من مات جوعًا أو ضل عن الطريق ومنهم من رجع فانطفأ أمله بإنقاذ القبر المقدس. فاستأنف

الباقون السير برًا إلى الأناضول فصدهم السلاجقة إلا أنهم عجزوا عن إيقافهم. وبعد قتال عنيف استولوا عَلَى إنطاكية سنة ٤٩١ هـ وسنة ١٠٩٦ م ومنها انحدروا إلى المدن الساحلية كطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا مُجدِّين فى سيرهم مصممين عَلَى فتح بيت المقدس فلما عرف الفاطميون بقدومهم ورأوا الخطر المحدق بهم طلبوا مصالحتهم عَلَى شرط أن يسهلوا الطرق لمن أراد زيارة القدس من المسيحيين فرفض الأفرنج وقصدوا الرملة فذهب إليهم نفر من أهالى بيت لحم ورحبوا بهم وحثوهم عَلَى قتال الفاطميين فصعدوا من الساحل إلى القدس وكان عددهم ٤٠ ألف مقاتل فحصروها وتحملوا من المشاق والصعوبة ما أزعجهم.

٥١ - فتح القدس:

كانت القدس قبل الفتح الصليبى فى يد سلاجقة الشام فخرج عسكر الخليفة الفاطمى بقيادة الأفضل بن بدر الجمالى واستولى عليها أمانًا فى شعبان سنة ٤٨٩ هـ فدخلت فى ملك المصريين وأنابوا عنهم فيها أفتخار الدولة فاتاها الإفرنج وحصروها نيفًا وأربعين يومًا وعانوا صعوبات شديدة نأتى عَلَى أجلها.

١ - قلة الماء: فإنهم كانوا ينقلونهُ من البيرة وعين كارم ولفتا.

٢ - نفاذ الذخيرة: إننا قد شهدنا أثناء الحرب العامة ما كان مجموعًا لتأمين المجاعات ومع ذلك فقد شكا الجند الجوع والعطش وكانت الحكومة المحلية تحرسهم والشعب يؤازرهم فكيف بجماعات غرباء فى بلاد يمقتهم أهلها ويقبحون أعمالهم وينكرون فظائعهم.

٣ - لوازم الحصار: فإن المحاصر يحتاج إلى أخشاب وأدوات أخرى وهؤلاء الدخلاء لم يحضروا معهم شيئًا من ذلك وكانت البلاد قاحلة والأحراج بعيدة عن القدس ولولا قدوم السفن الإيطالية التى كانت معها كثير من الأخشاب لما قدروا عَلَى بناء الأبراج ولما استطاعوا التسلق عَلَى جدران المدينة ولكنهم ذللوا كل هذه الصعوبات وحصروا المدينة ودخلها غود فرى من باب الساهرة وهو أول الداخلين ثم فتحت جميع الأبواب فملكوا القدس عنوة يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان

سنة ٤٩٢ هـ وسنة ١٠٩٩ م ولبث الفرنج يقتلون ويفتكون فى نساء وأطفال وشيوخ ومرضى المسلمين أسبوعًا ويقدر ما قتل منهم فى المسجد الأقصى ما يربو عَلى ٧٠ ألف نفس وفيهم أئمة المسلمين وعلماؤهم وعبادهم ممن جاوروا بيت المقدس وما ندرى لو تجلى السيد المسيح ورآهم يرتكبون تلك المخازى والمنكرات ماذا عساه يقول لهم وهو القائل «أحبوا أعداءكم» ولو أنا قايسنا بين دخول عمر ابن الخطاب البدوى وبين دخول غودفرى الافرنسى الذى عاش فى القرن الخامس بعد عمر لخجل الفرنج من سيرة قائدهم وفظائعه وافتخر العرب بعدل خليفتهم ومآثره.

فلما رأى المسلمون ما حل بهم استجاشوا الجموع لمحاربة الفرنج واسترجاع بيت المقدس فهتف الأبيوردى بقصيدة عصماء منها:

وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فهيا بنى الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... عَلَى هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماءٍ قد أبيحت ومن دُمى ... توارى حياءً حسنها بالمعاصم
وتلك حروب من يغب عن غمارها ... ليسلم يقرّع بعدها سن نادم
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدى ... رماحهم والدين واهى الدعائم
فليتهم إن لم يذودوا حمية ... عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

فهاجت نفوس المصريين وحشد الأفضل أمير الجيوش عساكره وسار إلى عسقلان وأنكر على الفرنج ما فعلوه وتهددهم فعاجلوه وهزموه وقتلوا من جيشه كثيرًا وغنموا ما فى المعسكر من مال وسلاح فانسحب إلى عسقلان ومنها إلى مصر فحصر الفرنج عسقلان وأخذوا من أهلها ٢٠ ألف دينار قطيعة لهم وعادوا إلى

القدس متخاذلين فأسسوا مملكة لاتينية صغيرة علَى شكل الإقطاع الأوروبى القديم واختاروا غودفرى أميرًا عليهم وشرعوا يفتحون ما بقى من مدن فلسطين فعاجل غودفرى أجله ودفن فى كنيسة القيامة عَلَى يمين الداخل ويوجد هناك سيف يزعمون أنهُ سيفه ولا يعلم حقيقة ذلك الزعم وانتخب بعده أخوه بلدوين ففتح مدينة ارسوف أمانًا وحيفا وقيسارية وقتلوا أهلها. ثم فتحوا كافة مدن الساحل خلا صور وعسقلان وظلوا فى حروب مستمرة مع الفاطميين وبوريى دمشق فلم يظفر أحدهم بالآخر وعجز المسلمون عن رد غاراتهم لأن بلادهم كانت منقسمة إلى إمارات وملوك عديدة واتفق أن استحكم الخلاف بين السلاجقة فشغلوا عن مقاومة الأجانب بمحاربة بعضهم بعضًا حتى إن «بكتاش بن تتش» أخا ملك سورية وايتكين الحلبى صاحب بصرى حالفاهم فاطمان الصليبيون وظنوا أنهم ملكوا البلاد فبنوا قلعة الشوبك والكرك وحصون عثليت وصفد وطبرية. وفى سنة ٥١٩ هـ انضم أمير العرب دبيس بن صدقة إلى الفرنج وحارب معهم العرب والمسلمين وفى سنة ٤٩٦ هـ سير الأفضل أمير الجيوش مملوك أبيه سعد الدولة لمحاربة الفرنج فلقيهم بين الرملة ويافا وبعد قتال عنيف كبا به الجواد فقتلوه وهزموا جنده وملكوا ما فى خيامه فارسل الأفضل ابنه شرف المعالى فى جمع كثير وصادمهم قرب يازور وهزمهم وأثخن فيهم وأسر كثيرًا من زعمائهم وأرسلهم إلى مصر وفتح الرملة وعزم أن يذهب إلى فتح القدس فجاءت نجدة صليبية من البحر فثبط عزمه وخارت قوته فانسحب إلى عسقلان واحتمى بها فحصروهم ثم قفلوا راجعين إلى القدس

وفى سنة ٥٠٢ هـ سار طغتكين إلى طبرية فحارب ابن اخت بلدوين وانتصر منه وأسره ثم هادن بلدوين أربع سنوات. وفى سنة ٥٠٧ هـ نزل طغتكين بجبشه الأقحوانه وحارب الفرنج فخذلهم وغرق منهم خلق كثير فى البحيرة ونهر الاردن فاستغاثوا بافرنج طرابلس وإنطاكية فأنجدوهم وأعادوا الكرة ولكنهم جبنوا والتجاوا إلى جبل غرب طبرية فحصرهم طغتكين ٢٦ يوما ثم سار إلى بيسان فنهب بلاد الفرنج بين عكا والقدس. وفى سنة ٥١٢ هـ خف طغتكين لمحاربة

الفرنج فلقيهم بين دير أبوب وكر بصل (فى حوران) ودخل طبريا ونهبها وما حولها وقصد عسقلان واتفق مع الجيش المصرى المرابط فيها ثم عاد إلى دمشق وهكذا ظل المسلمون والصليبيون فى كروفر حتى سنة ٥٤٧ هـ وسنة ١١٥٣ م فانقض الفرنج عَلَى مدينة عسقلان وفتحوها ونزعوها من يد الفاطميين فاستراحوا من غزواتهم وغاراتهم. ثم قام بعد بلدوين الأول بلدوين الثانى والثالث والرابع والملك أمورى ولكن هممهم أخذت تضعف وتفتروهمم الوطنيين تقوى وتستعر لأن حماسة الصليبيين تلاشت وانطفأت حرارتها فزال المحرك الذى ساقهم لإنقاذ البلاد والقبر المقدس مما رأوا من فساد الرهبان وأطماع الأمراء الذين رجعوا إلى سيرتهم الأولى فاختلفوا وانشقت كلمتهم وانصرف كثير منهم إلى بلادهم وتخاصم الباقون عَلَى التاج والألقاب والسلطة والأموال وتفاقم بينهم الخلاف والانقسام ووجبت شمسهم بقدوم بطل الشرق السلطان صلاح الدين فدك عرشهم ونكس أعلامهم.